

ثقافة الاختلاف

سماحة الشيخ حسن الصفار

قد تعادي شخصاً لأنه أساء لك أو اعتدى على حق من حقوقك، وهذا موقف مفهوم مشروع، وقد تعادي شخصاً لأنه ينافسك أو يزاحمك على مصلحة من المصالح أو مكسب من المكاسب، وهو أمر وارد وقابل للنقاش، أما أن تعادي شخصاً لأن له رأياً يخالف رأيك في قضية علمية أو دينية أو سياسية، فذلك موقف لا يسوّغه لك الشرع ولا العقل.

الرأي: شأن خاص

والرأي كما في اللغة: هو الاعتقاد، والجمع آراء. أي ما اعتقده الإنسان وارتآه. تقول رأيي كذا، أي اعتقادي. والاعتقاد والعقيدة: ما عقد عليه القلب والضمير، وما تدبّن به الإنسان واعتقده.

وبذلك فالرأي من شؤون قلب الإنسان، وهو من أخص خواصه الذاتية الشخصية، فلا يحق لأي أحد أن يتدخل في هذا الشأن بالقسر والقوة، كما أن التدخل في هذه المنطقة المحرّمة لا يجدي ولا يؤثر، فإذا ما حاولت أي قوة أن تفرض على إنسان رأياً أو تمنعه من رأي، فإنها لن تستطيع إلا إخضاعه ظاهراً، أما قراره الداخلي، وإيمانه القلبي، فيستعصي على الفرض والإكراه.

لذلك فإن الله سبحانه وتعالى ينفي إمكانية الإكراه على الدين وينهى عنه يقول تعالى: {لا إكراه في الدين} (1).

ورائع جداً ما قاله العلامة الطباطبائي حول هذه الآية الكريمة قال: وفي قوله تعالى {لا إكراه في الدين}، نفي الدين الإجباري، لما أن الدين وهو سلسلة من المعارف العلمية التي تتبعها أخرى عملية يجمعها أنها اعتقادات، والاعتقاد والإيمان من الأمور القلبية التي لا يحكم فيها الإكراه والإجبار، فإن الإكراه إنما يؤثر في الأعمال الظاهرية والأفعال والحركات البدنية المادية، وأما الاعتقاد القلبي فله علل وأسباب أخرى قلبية من سنخ الاعتقاد والإدراك، ومن المحال أن ينتج الجهل علماً، أو تولد المقدمات غير العلمية تصديقاً علمياً، فقول {لا إكراه في الدين}، إن كان قضية إخبارية حاكية عن حال التكوين أنتج حكماً دينياً ينفي الإكراه على الدين والاعتقاد، وإن كان حكماً إنشائياً تشريعياً كما يشهد به ما عقبه تعالى من قوله {قد تبين الرشد من الغي}، كان نهياً عن الحمل على الاعتقاد والإيمان كرها، وهو نهى متك على حقيقة تكوينية، وهي التي مر بيانها أن الإكراه إنما يعمل ويؤثر في مرحلة الأفعال البدنية دون الاعتقادات القلبية (2).

من هذا المنطلق فإن التظاهر بالكفر إذا كان ناتجاً عن ضغط وإكراه، فهو مشروع ولا يناقض الإيمان المستقر في القلب، يقول تعالى: {من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن

(1) سورة البقرة الآية 256.

(2) الطباطبائي: السيد محمد حسين/ الميزان في تفسير القرآن ج2 ص347.

بالإيمان⁽³⁾ ويعبّر عن ذلك في الاصطلاح الشرعي بالتقيّة، والتي هي: التحفظ عن ضرر الغير بموافقته في قول أو فعل مخالف للحق، اقتباساً من قوله تعالى: {إلا أن تتقوا منهم تقاة}⁽⁴⁾.

فالرأي والاعتقاد لا يغيّره الضغط والقهر، والتظاهر بالتخلي عن ذلك الرأي لا يزيله من قرارة نفس الإنسان، بل قد يزداد ثبوتاً ورسوخاً، بدافع التحدي ورد الفعل.

كما ينقل عن قصة العالم الإيطالي «غاليليو غاليلي 1564-1642م» والذي اعترضت الكنيسة المسيحية وعلماء اللاهوت على آرائه العلمية حول حركة الأرض وأنها ليست مركز العالم، ولا هي ساكنة، بل تتحرك وتدور يومياً، وأن الشمس هي المركز، واتهم بالهرطقة والخروج عن الدين، وجلبوه إلى روما للمثول أمام محكمة التفتيش، فاعتقل في الحال، ثم استنطق وحقق معه بعد شهرين، وهدد بالتعذيب، ثم أصدرت المحكمة حكمها بأن يعلن «غاليليو» التوبة، ويتنكر لآرائه العلمية، فحضر أمام المحفل الكنسي، وركع على ركبتيه وراح يقرأ ما أجبر على قوله، لكنه عند خروجه من المحكمة عقب قائلاً: «ومع ذلك فهي تدور» يقصد الأرض⁽⁵⁾.

وقد أعطى الله سبحانه وتعالى المجال للإنسان في هذه الحياة ليمارس حرية الرأي والمعتقد، فلم يفرض عليه الإيمان به عنوة، بل أنار له طريق الهداية، وترك له حرية الاختيار {إنا هديناه السبيل. إما شاكراً وإما كفوراً}⁽⁶⁾.

{وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر}⁽⁷⁾.

ولم يسمح الله تعالى حتى لأنبيائه أن يصادروا من الإنسان حرية رأيه واختياره، فهم يعرضون رسالة الله على الناس، دون فرض أو إكراه {فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر}⁽⁸⁾ {ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين}⁽⁹⁾.

وإذا كان للرأي هذه الخصوصية في نفس الإنسان، والموقعية في شخصيته، فكيف يحق لك أن تتدخل في هذه الخصوصية، وأن تعادي إنساناً أو تسيء إليه لأنه يمارس شأنه الخاص به في أعماق نفسه؟

إننا نعتزف للآخرين بخصوصيتهم في سائر المجالات، كالأكل والشرب مثلاً، فلو رأيت إنساناً يعادي شخصاً لأنه لا يرغب في نوع معين من الطعام، أو يعزف عن لون آخر، لاستنكرت عليه ذلك، على اعتبار أن هذه الرغبات شأن خاص لا علاقة للآخرين بها، والحال أن الرأي أكد خصوصية، وأشد التصاقاً بنفس الإنسان.

(3) سورة النحل الآية 106.

(4) سورة آل عمران الآية 28.

(5) حوحو: المهندس أسامة/ مآثر العلماء ص252 الطبعة الأولى 1994م مؤسسة بحسون بيروت.

(6) سورة الإنسان الآية 2.

(7) سورة الكهف الآية 29.

(8) سورة العاشية الآية 21-22.

(9) سورة يونس الآية 99.

اجعل نفسك ميزاناً

وأنت حينما تعادي زيداً أو عمراً لأنه يخالفك في هذا الرأي أو ذاك، هل ترضى أن يعاديك الآخرون على هذا الأساس؟ إنك لا تقبل أن يسيء إليك أحد لأنك تحمل رأياً معيناً، حيث تعتبر ذلك شأنًا خاصاً بك، وتعتقد بأحقية رأيك، وعليك أن تعرف أن الآخرين يرون لأنفسهم ما ترى لنفسك.

وفي وصيته الخالدة لابنه الحسن (عليه السلام) يقول الإمام علي (عليه السلام): « يا بني اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك، فأحب لغيرك ما تحب لنفسك، واکره له ما تكره لها، ولا تُظلم كما لا تحب أن تُظلم، وأحسن كما تحب أن يُحسن إليك، واستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك، وارضَ من الناس ما ترضاه لهم من نفسك، ولا تقل ما لا تعلم وإن قلَّ ما تعلم، ولا تقل ما لا تحب أن يقال لك »

إنها قواعد أساسية هامة في تعامل الإنسان مع الآخرين، ترجعه إلى ضميره ووجدانه، قبل أي شيء آخر.

احتمال الخطأ والصواب

يبالغ بعض الناس في التعصب لآرائهم، ويفرطون في الثقة بها، بحيث لا يفسحون أي مجال ولا يعطون أي فرصة للرأي الآخر، فهم على الحق المطلق دائماً، وغيرهم على الباطل في كل شيء. وينتج عن هذه الحالة -غالباً- موقف التطرف والحديّة تجاه المخالفين، وحتى في الاختلاف عند بعض القضايا الجزئية، والأمور البسيطة الجانبية.

إنه خلق يخالف تعاليم الإسلام الذي يربي أبنائه على الاستماع لمختلف الآراء ومحاكمتها على أساس الدليل والمنطق، لا التعصب والانفعال. يقول تعالى: ﴿ فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾⁽¹⁰⁾.

وأكثر من ذلك فإن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والذي لا يشك في أحقية دعوته بمقدار ذرة واحدة، يخاطب المشركين بمنتهى التواضع والموضوعية قائلاً ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ﴾⁽¹¹⁾. إنه منهج تربوي عظيم، يصوغ شخصية الإنسان على أساس احترام الآخرين، ومركزية العقل والوجدان.

والتعصب المطلق للرأي، والحديّة والتشنج تجاه آراء الآخرين، يمنع الإنسان من الانفتاح على الرأي الآخر، واستماعه والاطلاع عليه، وربما كان هو الرأي الصحيح والصائب. ثم أن ذلك قد يجعل الإنسان في موقف حرج مستقبلاً إذ قد يتبين له خطأ رأيه، فكم من إنسان تراجع عن رأيه، وتغيرت قناعاته؟ وتلك حالة طبيعية قد تحصل للإنسان تجاه مختلف المسائل والقضايا.

يقول شاعر المهجر إيليا أبو ماضي:

(10) سورة الزمر الآية 17-18.

(11) سورة سبأ الآية 24.

رب فكر بان في لوحة نفسي و تجلى
خلته مني و لكن لم يقم حتى تولى
مثل طيف بان في بئر قليلاً واضمحلا
كيف وافى و لماذا فرّ مني؟ لست أدري

وقد رأينا أناساً كانوا يبالغون في التعصب لآرائهم حول بعض المسائل والأشخاص والجهات، ويعتبرون القول بهذا الرأي هو الحد الفاصل بين الإيمان والكفر، أو يعتقدون أن الولاء لهذا الشخص أو لهذه الجهة هو مقياس الحق والباطل، ويعادون الناس ويناوؤونهم على هذا الأساس. لكنهم بعد فترة من الزمن تغيرت قناعاتهم وآراؤهم، مئة وثمانين درجة، مما أوقعهم في حرج مع أنفسهم وتجاه الناس.

إن الاعتدال والوسطية هو المنهج السليم، فلا يكون الإنسان متطرفاً ولا متشنجاً حاداً في مواقفه مع الآخرين، وعلى هذا المعنى يحمل قول أمير المؤمنين علي (عليه السلام): « أحب حبيبك هوناً ما، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما » وجميل ما قاله الإمام الشافعي كما نقل عنه: إن رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأيي غيري خطأ يحتمل الصواب.

تفهم مواقف الآخرين

حينما تعتقد أحقية رأي معين، وتجد آخرين يخالفون هذا الرأي الحق - في نظرك - فإن عليك قبل أن تتهمهم بالعناد والجحود والمروق، وأن تتخذ منهم موقفاً عدائياً، عليك أن تتفهم ظروفهم وخلفية مواقفهم.

فعل لديهم أدلة مقنعة على ما يذهبون إليه.

أو لعلهم يجهلون الرأي الحق، لقصور في مداركهم ومعلوماتهم.

أو لعلهم يعيشون ضمن بيئة وأجواء تحجب عنهم الحقائق.

أو لعلّ هناك شبهات تشوّش على أذهانهم وأفكارهم.

وتجاه مثل هذه الاحتمالات فإن المطلوب منك هو دراسة موقف الطرف الآخر، ومعرفة وجهة نظره، والدخول في حوار موضوعي معه، ومساعدته على الوصول إلى الحقيقة.

ونشير هنا إلى ملاحظة دقيقة هي: أن الإنسان قد يؤمن برأي من الآراء، ويعتبره حقيقة واضحة، تصل إلى مستوى المسلمات والبيدييات، لأنه قد أشبع الأمر بحثاً، وانشد إليه نفسياً، وعاش ضمن محيط قائم على أساس ذلك الرأي، فالمسألة أمامه واضحة جلية لا نقاش فيها، لكن الأمر ليس كذلك بالنسبة للآخرين.

« إن وضوح الفكرة لدينا لا يعني أن الآخرين ينظرون إليها بنفس الوضوح، فربما كنا نتطلع إليها من خلال الجوانب المضيئة عندنا، بينما يكون عنصر الضوء غير متوفر في الجوانب الأخرى التي يعيش فيها الآخرون، لأنهم لا يملكون ما يهيم لهم ذلك، تماماً كما يكون الصحو في بعض الآفاق مجالاً للانطلاق مع إشعاع الشمس، بينما تجعل السحب الدكناء الآفاق الأخرى في ظلام دامس.

وقد يبدو هذا طبيعياً عندما نلاحظ اختلاف وجهات النظر في فهم بعض الأشياء العادية في الحياة، كنتيجة طبيعية لاختلاف العادات والظروف والأفكار. ولعل قيمة هذا الاتجاه، في ملاحظة موقعنا تجاه الآخرين، تبرز في إتاحة الفرصة لنا في الانطلاق نحو موضوعية أكثر وفهم أرحب، في سبيل تعرف وجهة النظر الأخرى، من حيث طبيعة الفكرة التي يؤمنون بها من جهة، ومن حيث طبيعة الموقف الذي يتخذونه منا، من جهة أخرى، الأمر الذي يجعلنا أكثر قدرة على الحركة بوعي، وعلى ضوء الأجوبة الصحيحة لما يرد من التساؤلات، ومعالجة القضايا المعروضة في مجالات البحث⁽¹²⁾.

ويرينا القرآن على هذا النهج الموضوعي حينما يتحدث عن فئات من الراضين لرسالات الأنبياء، بأن سبب ذلك الرفض هو الجهل وعدم العلم، كقوله تعالى: {ذلك بأنهم قوم لا يعلمون}⁽¹³⁾. وقوله تعالى: {ولكن أكثرهم لا يعلمون}⁽¹⁴⁾. ويقول تعالى: {ذلك مبلغهم من العلم}⁽¹⁵⁾.

فنبى الله نوح (عليه السلام) في بدء رسالته يخاطب قومه مبدئياً تفهمه لظروفهم التي تجعلهم يرفضون رسالته، بسبب التشويش على أذهانهم، ووجود الشبهات التي تعيق تفكيرهم، مع أنه يحمل إليهم الدعوة الصادقة، والحجة الواضحة مطالباً لهم بتجاوز تلك الحواجز ليروا الحق. يقول تعالى: {قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي واتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون}⁽¹⁶⁾.

وفي لفظة تربوية معبرة يتحدث القرآن الكريم عن بني إسرائيل بعد نجاتهم من الغرق مع نبي الله موسى (عليه السلام)، وطلبهم منه أن يجعل لهم أصناماً كما للمشركين أصنام!! ومع سخافة الطلب ومخالفته الواضحة للدين، إلا أن نبي الله موسى (عليه السلام) أرجع ذلك إلى جهلهم، ثم صار يقرر عليهم حقيقة التوحيد من جديد، يقول تعالى: {وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون. إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون. قال أغير الله أبغيتكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين}⁽¹⁷⁾.

وصلوات الله تعالى على نبينا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي كان يدعو الله تعالى لهداية قومه قائلاً: اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون.

مسؤولية الرأي على صاحبه

إذا ما أصر إنسان على رأي خاطئ، ورفض قبول الحق والصواب، فإنه هو الخاسر بالدرجة الأولى، وسيدفع ثمن خطئه، ويتحمل مسؤولية رأيه، وما على المهتدين للحق إلا إرشاده وتوضيح الحقائق له، ثم هو بعد ذلك له كامل الحرية والاختيار، فإن استجاب فقد نفع نفسه، وإن أبى فهو

(12) فضل الله: السيد محمد حسين/ خطوات على طريق الإسلام ص 357 الطبعة الأولى 1977م دار التعارف بيروت.

(13) سورة التوبة الآية 6.

(14) سورة الأنعام الآية 37.

(15) سورة النجم الآية 30.

(16) سورة هود الآية 28.

(17) سورة الأعراف الآية 138-140.

المتضرر.

فمن يريد الذهاب إلى السوق لكنه يسلك طريقاً معاكساً فإن مسؤوليتك تنتهي عند حدود تبيين الطريق له، فإذا ما أصر على سلوك الطريق المعاكس، فإنه لن يصل إلى السوق التي يريد، والطبيب مهمته أن يقدم العلاج للمريض لكنه إذا لم يلتزم بالعلاج، فسيُدفع الثمن من صحته. ولا داعي لكي يزعم الإنسان نفسه، ويدخل في معارك العداة مع الآخرين لأنهم لم يقبلوا الرأي الذي يراه حقاً.

إن البعض يأخذهم الحماس لمبادئهم وآرائهم بحيث يضغطون على أعصابهم ويتأزّمون نفسياً ويتجاوزون الحدود في التعامل مع الناس، وكأن لهم الوصاية والسيطرة على أفكار الآخرين وتوجهاتهم، وهذا خطأ فظيع.

لقد كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حريصاً على هداية قومه، إلى حد أنه كان يجهد نفسه أكثر من اللازم، فجاءه التوجيه من الله سبحانه: ﴿لعلك باع نفسك ألا يكونوا مؤمنين﴾ (18). أي مهلك نفسك.

ومرة أخرى يخاطبه الباري جلّ وعلا: ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى﴾ (19). أي ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم، وتحسرك على أن يؤمنوا (20).

وفي القرآن آيات كثيرة تؤكد على أن مهمة النبي والداعية تنتهي عند حدود التبليغ والإرشاد، ولا يصح تجاوز هذه المهمة إلى حد ممارسة الوصاية والضغط على الآخرين. يقول تعالى: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾ (21).

ويقول تعالى: ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين ءأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد﴾ (22).

وهناك روايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام تؤكد على تجنب العداة والخصومة مع الآخرين على أساس الاختلاف في الدين والرأي كما روي عن الإمام الصادق (عليه السلام): «إياكم والخصومة في الدين»

وورد عنه في رواية أخرى: «فلا تخاصموا الناس لدينكم فإن المخاصمة ممرضة للقلب، إن الله قال لنبيه (صلى الله عليه وآله وسلم): إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء. وقال: أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين. ذروا الناس فإن الناس أخذوا عن الناس».

إن هذه التوجيهات الربانية والمفاهيم القرآنية، وسيرة الأنبياء والأئمة عليهم السلام تردع الإنسان

(18) سورة الشعراء الآية 3.

(19) سورة طه الآية 2-3.

(20) الشوكاني: محمد بن علي بن محمد/ تفسير فتح القدير ج3 ص443 المكتبة العصرية- بيروت 1997م.

(21) سورة النساء الآية 80.

(22) سورة آل عمران الآية 20.

عن أن يكون حاداً متشنجاً مع من يخالفه في الدين والرأي، أو أن يجعل اختلاف الرأي سبباً ومبرراً للعداء والخصومة.

العداوة تمنع التأثير

إذا كنت مخلصاً لأفكارك، ومتحمساً لنشرها، واستقطاب الآخرين باتجاهها، فإن الطريق لذلك هو الانفتاح على الآخرين، وخلق جو من الاحترام والودّ معهم.

فوجود علاقة لك بهم، وتواصل بينك وبينهم، يتيح لك الفرصة لعرض أفكارك وآرائك عليهم، أما القطيعة والعداء، فإنها تسلب منك هذه الإمكانية، وتفقدك الرغبة والاندفاع في تكرار محاولة التأثير عليهم.

من ناحية ثانية فإن حالة العداء وما تفرزه من سلوكيات منفرة تحول بين الطرفين وبين الإقبال والاستجابة.

فالعاقل الواعي الذي يريد خدمة أفكاره، وأن تشق طريقها إلى قلوب الناس، هو الذي يمتلك سعة الصدر ورحابة الأفق، ولا ينفعل تجاه الرأي المخالف، حتى ولو تعامل معه الآخرون بشكل سيئ، فإنه يمارس أعلى درجات ضبط النفس، والتحكم في الأعصاب، بحيث يقابلهم باللطف والإحسان، فيمتص التشنجات، ويستوعب الاستفزازات.

وبهذه المنهجية الأخلاقية يدفعهم لإعادة النظر في موقفهم تجاهه، ويشجعهم على الانفتاح على أفكاره، مما قد يغيّر قناعاتهم، ويستقطبهم إلى جانبه وإلى صف رأيه.

ويؤكد القرآن الكريم تأثير أسلوب الرفق والإحسان وأنه يساعد على تغيير المواقف والنفوس لصالح الدعوة والرسالة، في قوله تعالى: ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم. وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ (23).

فالمنهجية الحسنة القائمة على أساس اللطف والاحترام والود مع الآخرين، تختلف في نتائجها عن المنهجية السيئة المعتمدة على الشدة والقطيعة والعداء، فالأولى تفتح الطريق أمام التأثير والكسب، بينما الثانية تسبب النفور وتزيد هوة التباعد.

لكن المنهجية الحسنة لا تتوفر إلا لمن يروض نفسه على الصبر تجاه الإساءات والاستفزازات، ويمتلك نصيباً عظيماً من الأخلاق الفاضلة.

وينهى الله سبحانه عباده المؤمنين من أن يتحدثوا مع المخالفين لهم في الدين إلا بأفضل أسلوب، وأحسن طريقة، رعاية لمشاعرهم يقول تعالى ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾ (24).

لقد واجه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في بداية الدعوة معارضة ومخالفة عنيفة من قبل المشركين، ولكنه تغلب على كل ذلك بأخلاقه العظيمة ﴿وإنك لعلی خلق عظیم﴾ ولولا ذلك

(23) سورة فصلت الآية 34-35.

(24) سورة العنكبوت الآية 46.

الخلق الرفيع لما تمكن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من هداية ذلك المجتمع الجاهلي الغارق في الفساد والتخلف، يقول تعالى: {ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك} (25).

وهكذا فإن على من يعتبرون أنفسهم حملة للحق، وذوي الفكر الصحيح والرأي الصائب، أن يتحلّوا بمصادقية أخلاقية في التعامل مع الناس، وخاصة المخالفين لهم في المذهب أو الرأي أو الموقف، فإن القطيعة والعداوة والإساءة، تخالف تعاليم الدين، وتصادم توجيهات العقل، وتشوّه دعوة وفكرة أصحابها، وتنقّر الناس منهم.

منهج الإسلام وسيرة السلف

من الظواهر المؤسفة في بعض الأوساط الدينية، سوء التعامل مع المخالفين في الدين أو المذهب أو الاتجاه، حتى أصبحت الغلظة والفظاظة والتجهم والتشدد سمة من سمات التدين عند هؤلاء، وأصبح حتى الاختلاف على بعض المسائل الجزئية الاجتهادية سبباً للقطيعة والعداء.

وهذا مخالف لمنهج الإسلام، ولسيرة السلف الصالح، من أئمة أطهار وصحابة أختيار. فالقرآن الكريم يشجع المسلمين على حسن التعامل والبر بالكافرين غير المحاربين والمعتدين يقول تعالى: {لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين. إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون} (26).

« أي: لا ينهاكم الله عن البر والصلة، والمكافأة بالمعروف، والقسط للمشركين، من أقاربكم وغيرهم، حيث كانوا بحال لم ينصبوا لقتالكم في الدين، والإخراج من دياركم. فليس عليكم جناح أن تصلوهم، فإن صلّتهم في هذه الحالة، لا محذور فيها ولا تبعة » (27).

وفي سيرة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أروع الصور الإنسانية، وأسمى المواقف الأخلاقية في التعامل مع الكافرين من يهود ونصارى ومشرّكين، ليس في العهد المكي فقط، وإنما في العهد المدني وبعد أن جاء نصر الله والفتح.

كما أن تعامل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مع تيار المنافقين في المجتمع الإسلامي، مع خطورة دورهم التأمري على الكيان الإسلامي الناشئ، كان تعاملاً حضارياً راقياً، ينبغي أن يستلهم منه كل مسلم روح التسامح، وسعة الأفق، وقدرة الاستيعاب للآخر.

حيث لم يلجأ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى القوة والقمع ضدهم، رغم استفزازاتهم وجرائمهم، فلم يتعامل معهم كاعداء محاربين، ولم يقتل منهم أحداً، ولم يسجن أحداً، ولم يطرد منهم أحداً.

كما لم يصادر أي حق من حقوقهم المدنية، فكانوا يتمتعون بحقوق المواطنة كاملة، كسائر

(25) سورة آل عمران الآية 159.

(26) سورة الممتحنة الآية 8-9.

(27) السعدي: عبدالرحمن بن ناصر/ تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص 1455، 1418هـ-

1997م مؤسسة الريان بيروت - لبنان.

المسلمين، يحضرون المسجد، ويدلون بأرائهم في قضايا المجتمع، ويأخذون نصيبهم من الغنائم وعطاء بيت المال.

وأكثر من ذلك كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يبذل لهم الإحسان، ويحوظهم بمداراته، ويشملهم بكرم أخلاقه، وشواهد ذلك جليلة واضحة لكل مطلع على السيرة النبوية العطرة.

وتجسيدا لهذا النهج الإسلامي وتأسياً برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان تعامل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أثناء خلافته الراشدة مع تيار الخوارج، الذين خالفوا جمهور الأمة في آرائهم العقديّة، وتوجهاتهم السياسية، حيث اعتبروا مرتكبي كبائر الذنوب كفاراً مخلدين في النار، إن لم يتوبوا قبل الممات، وهو اعتقاد مخالف لنصوص الكتاب والسنة، كما ردوا الأحاديث الواردة عن طريق علي وعثمان ومن شايعهما، وكفروا الصحابة وخاصة أمير المؤمنين علي وهو الإمام الذي بايعه جمهور الأمة. واستحلوا دماء المسلمين وأموالهم إلا من خرج معهم، ورغم كل هذه الانحرافات الفكرية والسلوكية الخطيرة لم يكفرهم الخليفة الإمام علي، ولا جمهور الصحابة، ولم يتخذ الإمام تجاههم أي إجراء عدائي، ولم يمنعهم حقاً من حقوق الإسلام والمواطنة، إلا حينما شهروا السلاح ومارسوا العنف فإنه أضر لمواجهتهم حماية لأمن البلاد والعباد، وبعد هزيمتهم العسكرية وكسر شوكتهم لم يتعقبهم ولم يؤاخذهم على آرائهم.

جاء في تاريخ بغداد للخطيب البغدادي: (ج 14 ص 366) أنه بعد واقعة النهروان سمع بعض أصحاب الإمام شخصاً يقال له أبا العيزار الطائي وهو يجهر برأي الخوارج، فجاؤا به للإمام علي قائلين: هذا يرى رأي الخوارج، ونقلوا حديثه، فقال ع: ما أصنع به؟ قالوا: تقتله. قال الإمام: أقتل من لا يخرج علي؟ قالوا: تحبسه. قال: وليست له جناية احبسه عليها، خلّوا سبيل الرجل. وأخيراً:

فإن اختلاف الرأي ظاهرة طبيعية في حياة البشر، ولا يصح أن تكون سبباً للتعادي والتخاصم، بل ينبغي أن تستثمر لصالح تكامل المعرفة، واكتشاف الحقيقة، وإثراء الساحة الثقافية. وأفضل خدمة تقدمها للرأي الذي تؤمن به، حسن تعاملك مع الآخرين، لتقدم بسلوكك الطيب أنموذجاً مقبولاً لأفكارك، ولتكون بسيرتك الصالحة داعية لآرائك، أما أسلوب العداوة والتشدد، فهو يسيء إلى التوجه الذي تنتمي إليه أولاً، وإليك ثانياً.